د/ زغينة نوال

جامعة الحاج لخضر باتنة

عنوان المداخلة: **نحو سوسيولوجيا عربية.**

المحور الثاني: مكانة ودور علم الاجتماع في المجتمعات العربية.

د/ نوال زغينة- مداخلة في ملتقى

مقدمة:

إن قراءة وتحليل التراث السوسيولوجي عند الرواد الأوائل في الغرب يبرز بأنه ظهر بسبب متطلبات واقع مادي وثقافي يشير إلى وجود أزمة بنائية، هذه الأزمة هي التي كانت سببا في إيجاد علم يهتم بشؤون الأزمة وكيفية تخطيها أو على الأقل التكيف معها وتغيير مسارها لصالح نظام اجتماعي معين، فعلم الاجتماع الغربي ظهر حين أدرك رجال الفكر والفلسفة أن هناك أزمة بناء قد تؤدي إلى انهيار النظام الاجتماعي السائد، من هنا فالسوسيولوجيا تشكلت في ضوء أزمة واقعية تمثل انهيارا للنظام الاجتماعي .

وإذا كان المجتمع الغربي منتج التنظير السوسيولوجي يعاني من أزمة في علم الاجتماع مردها أزمة في النظام، رغم أن ظروف هذا المجتمع وأوضاعه ساعدت على تحويل الأزمة إلى واقع مبدع للعلم الاجتماعي والنظرية السوسيولوجية، تبلورت في تيارات فكرية وإيديولوجية متعددة خلفت محاولات فكرية لتبرير أوضاع المجتمع حيث انعكست أزمة الواقع على مجال الفكر فظهر كم هائل من التصورات السوسيولوجية لفهم ديناميات مشكلات المجتمعات الغربية وتبرير أوضاعه، بدأت بالاتجاهات المحافظة وتطورت إلى النقدية، فان المجتمعات العربية أزمتها من نوع أخر فهي أزمة اغتراب، حيث غياب رؤى نظرية ذاتية ومستقلة معبرة عن تراث هذه المجتمعات، فهي لا تبحث في قضايا الواقع العربي وإنما تقتصر على ترجمة وصياغة الفكر الغربي واستيراد نظريات جاهزة قد تكون غريبة عن الواقع في محاولة لتطبيقه على واقع المجتمعات العربية مع ان السوسيولوجيا ليست لتطويع تفسيرات واقع الاخرين وانما هي لتفسير الواقع الاجتماعي كما انتجه الفاعلون الاجتماعيون بتوجهاتهم التي تحمل قيم المجتمع قيد التحليل.

والظروف التي تمر بها المجتمعات العربية تجعل من هذه الفترة الوقت المناسب لتطوير السوسيولوجيا، في محاولة لتحليل العلاقة بين الفكر والواقع، بين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصياغات الفكرية التي تبلورت من خلاله.

من كل ما سبق يطرح التساؤل التالي:

لماذا لم يظهر علم اجتماع عربي ونظريات سوسيولوجية تنطلق من واقع المجتمعات العربية بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، وتقدم حلول ومبررات تتماشى مع هذه البيئة – رغم ان الجذور الأولى لهذا العلم انطلقت مع دراسات ابن خلدون– أم أن الغرب لهم دور في هذا الطمس؟

الاجابة عن هذا التساؤل تكون من خلال الاجابة عن الاسئلة الفرعية:

- لماذا يفتقد المجتمع العربي الاصالة السوسيولوجية؟
- لماذا هو تابع للفكر الغربي؟
- ما هي مكانة علم الاجتماع في المجتمعات العربية خاصة المجتمع الجزائري؟
- ما هو دور علم الاجتماع في المرحلة الراهنة في المجتمعات العربية؟

أولا: رؤية في ازمة علم الاجتماع في المجتمعات العربية:

السؤال الذي يمكن ان ننطلق منه لماذا لم يتبلور اطار نظري عربي في علم الاجتماع يكون قادرا على تحليل ازمة الواقع وتناقضاته او بمعنى اخر لماذا ظهر هذا العلم كرؤية ملحة في سبيل حل مشكلات الواقع الاوروبي، لكنه لم يظهر كنظرية متكاملة في ظل واقع المجتمع العربي بالرغم من وجود ازمات خاصة ومتميزة في هذا الواقع، فما طبيعة أزمات الواقع العربي التي لم تفرز حتى الان علما سوسيولوجيا حقيقيا؟

يعتبر علم الاجتماع في الوطن العربي من العلوم الحديثة والتي تعكس الى حد كبير وضعية التخلف والتبعية والعجز امام التغيير، ويمكن النظر الى الفكر السوسيولوجي في الوطن العربي من زاويتين، الاولى الجيو اجتماعية بمعنى دراسة الاحوال المادية واللامادية لمجتمعات معينة في الاطار المكاني والاقليمي دون اهمال المشاكل الاجتماعية في تلك المنطقة، ويبدوا ان الثقافة العربية ارتبطت بالموروث الاستعماري

دارفال رغنية -مداخلة في ملتقى

مما اثر في البيئة الاجتماعية وادى الى تبني مركب ثقافي يتصف بازدواجية التفكير لإعادة تركيب مجتمع ما بعد الاستعمار، هذا النمط الثقافي وما ترتب عنه من ممارسات سوسيولوجية يمثل استجابة لافتقار الثقافة المحلية نظريات واضحة المعالم، ومناهج علمية تمكن من حل المشكلات المتجذرة في المجتمعات العربية مما أدى الى استيراد حلول جاهزة بتبني نظريات ومناهج من ثقافات اخرى طبقت بوسائل وتقنيات ثقافة المستعمر والثانية تتمثل في زاوية التبادل الحضاري والثقافي الناتجة من عمليات توحيد المجتمع بعد عملية التحرر بمحاولة بناء نظام أفضل لكن كل من زاويته الخاصة.

ان الباحث العربي في علم الاجتماع، حائر يعيش ازمة انفصام وتناقض وازدواجية فكرية، يجمع بين متناقضات يتعايش بعضها مع بعض، والمحصلة النهائية انه ينفصل عن واقعه فيفصل في تحليلاته بين الواقع بأزماته وبين الفكر ومعضلاته ، وقراءة التراث السوسيولوجي تبين ان علم الاجتماع ظهر في ضوء متطلبات واقع مادي وثقافي يشير الى وجود ازمة بنائية وواقع الامر انه لولا هذا الواقع المتأزم ما كانت الدعوة الى تخصيص علم يهتم بشؤون الازمة، وفي هذا السياق التاريخي لوحظ ان الدراسات السوسيولوجية العربية تبنت التوجهات الكبرى المنتشرة في الغرب،[1] وهنا تكمن المشكلة الحقيقية فالمجتمعات الغربية منتجة التنظير السوسيولوجي تعاني بدورها من أزمة في علم الاجتماع، ولفهم واقع علم الاجتماع في المجتمعات العربية لابد من التعرف على هذه الازمة فكل مقاربة للسوسيولوجية عند العرب تتوقف على الفهم الصحيح لشروط تأسيسها الاصلي في الغرب سواء في أوربا او امريكا.

ثانيا: أزمة علم الاجتماع الغربي:

لقد كان اهم سؤال او اشكالية واجهت الرواد الاوائل في علم الاجتماع هي كيف يكون المجتمع ممكنا وكيف يمكن ايجاد رباط اجتماعي يجمع اعضاء المجتمع لمجابهة التغيرات والتطورات، وما هي العوامل التي تتحكم في تغير المجتمع، وكانت البداية طموحة على ايدي الرواد الاوائل بقناعتهم بقدرة علم الاجتماع على ايجاد حلول لكل المشكلات التي تعترض تطور المجتمع وايجاد القوانين التي يسير وفقها ، الا ان الجيل اللاحق من علماء الاجتماع كانوا اقل طموحا وتخلصوا من النزعة التنبؤية والحتمية لصالح نظرة واقعية اتخذت من النسبية وواقع الحياة اليومية وتفاعلاتها اساسا لفهم هذا الواقع المعقد، وقد جسد هذا التوجه ما بعد الحداثة والاتجاهات التفاعلية.

[1]- عبد القادر لقجع، **علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر**، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2004)، ص.46.

ان مهمة علم الاجتماع لم تكن سهلة منذ البداية بسبب اختلاف الرؤى والتوجهات الايديولوجية التي ظهرت مع الرواد الاوائل واستمرارها يعكس تعقد المجتمع والظاهرة الاجتماعية، وبرزت نماذج تحليلية وتفسيرية ومقاربات نظرية ومنهجية سعيا لإعطاء صورة حقيقية لما يجري داخل المجتمع وتفسير سلوكات وافعال اعضائه والاسباب والدوافع الكامنة التي تحكم الفعل الاجتماعي، ومع كل هذا التنوع في النماذج النظرية التي سعت الى فهم حقيقة ما هو اجتماعي تمكن علم الاجتماع في الغرب ان يثبت جدارته ووجوده كمجال معرفي وبدأت الطلبات الاجتماعية تتزايد من قبل المؤسسات والهيئات المختلفة على علماء الاجتماع الذين برهنوا نسبيا على نجاحهم.

ويتضمن تراث علم الاجتماع جدلا كبيرا حول موضوعاته المختلفة وأحد عوامل الاختلاف بين العلماء والباحثين في هذا الميدان هو نوعية المشاكل المطروحة ونوعية الظواهر والحالة الاجتماعية التي يمر بها المجتمع عموما، هذا الوضع كان اساسا للتحليل الاجتماعي وترتب عنه تراث فكري ونظريات اجتماعية مختلفة راحت كل واحدة منها تفسر وتحلل الظواهر الاجتماعية من وجهة نظرها الخاصة، وفي نفس الوقت تقدم نماذج للفهم والتفسير وكذلك التسيير والتنظيم لمنظمات العمل، العامل الاخر في الاختلاف بين الباحثين في التحليل الاجتماعي هو الاختلاف الجغرافي والزماني الذي يؤدي الى التباعد الفكري والتباين بين الرؤى والنظريات،[1] فعادة تفرض الابعاد الجغرافية نمطا فكريا سواء تعلق الامر بوحدات التحليل او تعلق الامر بمنهج التحليل.

ان المدخل الى دراسة الواقع هو مدخل عقلي، واشكالية المنهج بدأت بانها علاقة العقل بالوقع فهي تدور حول مناهج تحصيل المعرفة، وعلاقة العلم بالمجتمع، وترتبط مسيرة علم الاجتماع بإشكالية منهجية واجتماعية وفكرية، اي تغيير في علاقة العلم والمناهج والفكر بالواقع وتمتع هذه العلاقة بالدينامية والنقدية، واذا كانت الاشكالية المنهجية عند المفكرين السابقين تدور في معظمها حول تأسيس المنهج على اسس عقلية عند " ديكارت" او تجريبية عند " فرنسيس بيكون" ومواجهة افكار الكنيسة المعادية للعقل والعلم والتأسيس للنهضة الاوروبية الحديثة، فان اشكالية المناهج الحديثة ظهرت مع اوجيست كونت (1798-1857) نفسه، الذي ذهب في رفضه للفكر اللاهوتي الى التأكيد على أخذ مناهج العلوم الانسانية بمنهج العلوم الطبيعية، وان اتخاذ صفة العلمية لعلم الاجتماع متوقف على تطبيق مناهج العلوم الطبيعية، وان علم الاجتماع الذي سماه بالفيزياء الاجتماعية عليه ان يبحث في القوانين الاجتماعية للسلوك الانساني.

[1]- عامر مصباح، علم الاجتماع الرواد والنظريات، (الجزائر: شركة دار الامة، 2010)، ص.12.

وقد ساهمت الاوضاع التي خلفتها الثورة الفرنسية آنذاك والتي تعكس حسب رأي كونت عجز المناهج اللاهوتية والفلسفية عن تخطيط وتنظيم المجتمع الى تمسكه بتطبيق مناهج العلوم الطبيعية، ورغم ان فلسفة كونت تضمنت افكار عصر التنوير التي تأكد على دور العقل والمعرفة والمنهج في التقدم الانساني الا انه كان معاديا لفكر عصر التنوير وهكذا ظهرت هذه الاشكالية مع الفلسفة الوضعية وتحديدا مع اوجيست كونت، الذي اراد لعلم الاجتماع ان يأخذ بمنهج العلوم الطبيعية وبتطبيق المنهج التجريبي، فأساس المشكلة هو مركب النقص عند العلوم الانسانية وانها لا تصبح علما ما لم تطبق المنهج العلمي، وقد تطورت هذه الرؤية المنهجية عند تلميذه دوركايم حيث أكد في كتابه" قواعد المنهج في علم الاجتماع" على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية على انها اشياء يمكن ملاحظتها كنقطة بدء للعلم.

من هنا كانت بداية الازمة، فملاحظة الظواهر الاجتماعية في ذاتها اي مجردة من الافكار التي يكونها الناس لأنفسهم عنها، ودراسة الظواهر من الخارج على انها اشياء خارجية لأنها لا تقع تحت الملاحظة الا على هذه الكيفية، أي أن شيئية الظاهرة الاجتماعية بوصفها أشياء قابلة للملاحظة والتجربة هي التي عمقت الخلاف المنهجي وساهمت ايضا في تطوير المناهج وصعدت الخلاف داخل العلوم الاجتماعية بين من يأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وبين من يؤكد على خصوصية المنهج في العلوم الاجتماعية والتاريخية وقد شغل هذا الخلاف المجتمع العلمي طوال القرن العشرين .

ان رفض المنهجية الوضعية للفكر اللاهوتي والميتافيزيقي وصل الى حد رفضها لكل ما هو فكري وما هو متعلق بالإنسان وحريته من خلال دراستها لعالم الاشياء بدلا من عالم الانسان، وانتماء بعض علماء الطبيعة الى مدرسة علم الاجتماع امثال اوجيست كونت وفلفريدو باريتو وتبني بعض مقولات العلوم الطبيعية كفرضيات في تحليل الظواهر الاجتماعية، واستخدام مناهج وادوات العلوم الدقيقة في دراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية وطريقة القياس الكمي للعلاقات في هذه الظواهر والمتمثلة في العلاقة بين المتغيرات المستقلة والتابعة وقد كانت النتيجة العملية لهذا التوظيف المنهجي، تطور الدراسات التجريبية او الامبريقية في علم الاجتماع رغم الانتقادات الموجهة لها.

ان العديد من الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ترفض المنهج الوضعي ، وكان فيلهلم دلتاي (1838-1911) اول من اثار اشكالية العلوم الطبيعية والعلوم العقلية، وقد تطورت هذه الرؤية المنهجية لاحقا عند علماء الاجتماع الالمان الذين اكدوا على الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، فقد ميز دلتاي بين علوم العقل من جهة التي هي علوم الحياة والتي هي مصدر المعرفة والخبرات والتجارب وتتولد

د/ بول زغينة- مداخلة في مقياس

العلوم العقلية من حياة الافراد والمجتمعات وتنشأ العلاقة بين الحياة والعلم، فتصبح الحياة موضوع العلم، والعلوم الطبيعية التي تدرس العالم الخارجي من جهة اخرى.

وفي نفس السياق ظهرت دراسة الفيلسوف الالماني ادموند هوسرل مؤسس الفلسفة الظاهرتية الذي كان من اشد المنتقدين للمنهج الوضعي الذي هيمن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتباره لا يهتم بالواقع الاجتماعي والانسان من خلال قطعه الصلة بين العلم والحياة اليومية واهتمامه بتقنيات البحث ودقة النتائج اكثر، وانطلق هوسرل في دراسته من تساؤلات اساسية عن ازمة العلوم الاجتماعية وعن اهمية هذه العلوم ما دامت لا تساعد الانسان على التغلب على ازمات الحياة ولماذا لا ترتبط هذه العلوم بالحياة والانسان.

لقد نفت الوضعية باسم الموضوعية الاسئلة المتعلقة بالإنسان وجردته من انسانيته بدراسته على اعتباره اشياء كما قطعت الصلة بالحياة والقضايا الوجودية للإنسان وهنا اكد هوسرل ان المعرفة العلمية اصبحت منفصلة عن خبرة الحياة اليومية وهي المكان الذي نبعت منه تلك المعرفة اصلا وعليه تعمل الفلسفة الظاهرتية على اعادة تلك الصلة،[1] وقد استخدم علماء الاجتماع هذه الحجة ضد النظرية الاجتماعية التقليدية وبخاصة ضد الوظيفية البنائية من حيث انها اصبحت منفصلة عن نبض الحياة اليومية.

وتهتم الظاهرتية اساسا بدراسة البنى وبعمل الوعي الانساني ومسلمتها الرئيسية ان العالم الذي يعيش فيه الانسان مصنوع في وعيه، كما لا يمكن نكران وجود العالم الخارجي لكن الفكرة هي ان العالم الخارجي لا معنى له الا من خلال وعينا به وعالم الاجتماع لا يهتم بالعالم الا من حيث انه له معنى، واهتم الفرد شوتز تلميذ هوسرل بمزج افكار الفلسفة الظاهرتية مع علم الاجتماع عبر نقد اعمال ماكس فيبر، حيث حاول ان يبين كيف نبني معرفتنا بالعالم الاجتماعي من خلال تنميط التجارب المضطربة التي لا معنى لها وذلك بتصنيف الخبرات والتجارب على اساس التشابه. [2]

وبقيت هذه الخلافات بعد الحرب العالمية الثانية بل وازدادت كما وضح المفكر الفرنسي ليوتارد صاحب نظريات ما بعد الحداثة خاصة بعد انهيار مرتكزات الحداثة المتمثلة في العقل والحرية والتقدم، وجاءت دراسات مدرسة فرنكفورت تعكس واقع معانات روادها من اثار الحرب العالمية الثانية وتعبيرا عن تجارب التهجير والمهجر، ونقدا إيديولوجيا للرأسمالية والشيوعية ينصب في معظمه حول تركيزها على

[1]- ايان كريب: **النظرية الاجتماعية من بارسونز الى ها برماس** (تعريب محمد حسين غلوم)، الكويت، ص.148.
[2]- ايان كريب، نفس المرجع السابق، ص.150.

الانتاج واهمالها للإنسان، ويتضح مما سبق ان اشكالية علم الاجتماع او الازمة في علم الاجتماع الغربي ادت الى بروز مجموعة من المدارس والمناهج كالمنهج الهرمينوطيقي، [1] والظاهراتي ومنهج علم اجتماع المعرفة ومنهج الفهم الفيبري ومنهج مدرسة فرنكفورت النقدي، وصولا الى نظريات ومناهج المجتمع العالمي.[2]

وهكذا نصل الى ان اشكالية علم الاجتماع تعود الى اختلاف الظاهرة الاجتماعية عن الطبيعية، والى تعذر قيام الموضوعية، وقد تعددت الآراء فالبعض يرى ان الظاهرة الاجتماعية في بساطة الواقعة الطبيعية، ومن ثم تخضع للدراسة العلمية الدقيقة والبعض الاخر يجاهر بتعقدها وصعوبة اخضاعها للمنهج العلمي، وبين الطرفين ظهرت اراء متعددة بعضها يعترف بصعوبة مادة الدراسة مع امكانية دراستها دراسة علمية والبعض وصل الى درجة التطرف برفضه النظر اليها باعتبارها علوم اصلا، بحجة غياب الاطراد والتجربة ونسبية قوانينها.

وتبقى المشكلة الاصلية تكمن في عاملين:[3]

- نوعية الظاهرة المدروسة.
- العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه.

ان ما يراه البعض اشكالية العلوم الاجتماعية هو ما يميزها عن العلوم الطبيعية، وهي انها علوم تقويمية انسانية معبرة عن رؤى واضعيها وافكارهم ، ان الخلافات الحادة بين علماء الاجتماع ليست بين الذين قد يلاحظون بدون تفكير والذين قد يفكرون دون ملاحظة، لكن الخلافات اقرب لان تكون فيما يتعلق بماهية انواع التفكير وماهية انواع الملاحظة وماهية انواع الروابط بين الاثنين، اي العلاقة بين التفكير والملاحظة او بين المنهجين الكيفي والكمي.

د. أنوال رغيمة - مداخلة في ملتقى

---

[1]- الهرمينوطيقي يعد المفكر الالماني دلتاي رائد هذا المنهج وقد سمى منهج العلوم التاريخية بهذا الاسم ويقصد به منهج التأويل، ومصطلح الهرمينوطيقية يعود الى المصطلح اليوناني HEMENEUEIN الذي يفيد ما معناه تأويل اقوال الالهة، وعليه فالتاريخ يؤول الحقائق التاريخية ويفسرها ويعتبر المنهج الهرمينوطيقي من اقدم المناهج وترجع نشأة هذا المنهج الى المحاولات الاولى لتفسير الكتاب المقدس على يد اللاهوتيين الاوائل، على ان النهضة الكبرى للمنهج الهرمينوطيقي وللمناهج بشكل عام ظهرت في القرن 19عشر عندما ذهبت المدرسة التاريخية تؤكد على اهمية منهج الفهم في مواجهة المنهج الوضعي، لمزيد من المعلومات انظر: عبد القادر عبد الله عرابي، **المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية**، (دمشق: دار الفكر، 2007)، ص.ص 317-343.

[2]- عبد القادر عبد الله عرابي، المرجع السابق، ص.19.

[3]- نفس المرجع، ص.28.

لقد شكل الخلاف بين المناهج الكمية والكيفية هوية العلوم الاجتماعية وطورها في الغرب فالمنهج الكيفي بأطيافه المعرفية المختلفة التي تشمل التاريخ والواقع والانسان والثقافة واللغة والفكر، هو منهج امبريقي وتاريخي ومنهج عالم الحياة والانسان، منهج قوامه دراسة الانسان والواقع الاجتماعي بأبعاده المختلفة، وينطوي على خيال منهجي كيفي يستقرئ الواقع ويقرأ المستقبل ويدرس الانسان بمختلف ادواته المعرفية كالملاحظة بالمشاركة والمقابلة الحرة والمعمقة والخطابية والبؤرية ومقابلة الخبراء والمحادثة الجماعية. [1]

ثالثا: مكانة علم الاجتماع في المجتمعات العربية:

واذا كان هذا الحال بالنسبة لعلم الاجتماع الغربي فان واقع الحال بالنسبة للمجتمعات العربية تشير الى وجود مشاكل متعددة فقد سعى كثير من المشتغلين بعلم الاجتماع العرب ان يأسسوا لهذا العلم في محاولة لحل الكثير من المعضلات والمشكلات الاجتماعية الا ان المنطلقات لم تكن بقدر الطموحات والبدايات لم تكن نابعة من اشكالية خاصة بالمجتمعات العربية مثل ما حدث في الغرب عند ظهور علم الاجتماع حيث كان نتيجة للازمة العميقة التي عرفها المجتمع هناك وما خلفته الثورة السياسية والثقافية والاقتصادية، اما في المجتمعات العربية فقد جاءت الدعوة الى ظهور علم اجتماع عربي نتيجة للازمة التي ظهرت في الغرب في السبعينات من القرن الماضي كما عبر عنها عالم الاجتماع قولدنر في كتابه " الازمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" .[2]

ان المجتمعات العربية بحاجة لعلم الاجتماع في المرحلة الراهنة لفهم حقيقة ما يجري وايجاد حلول للمشكلات المتراكمة، فعلم الاجتماع في المجتمعات العربية لم ينل الاعتراف الكامل كمجال معرفي خاص قادر على فهم مشاكل وازمات المجتمعات العربية، فقضايا العنف بشتى انواعه وعند كل الفئات والانحرافات والشباب وصراع القيم الذي فرضته العولمة، ووسائل الاعلام والاتصال الحديثة وعلاقتها بالقيم والوعي والثقافة والروابط الاجتماعية وقضايا التنمية والتعليم والمرأة والبيئة...الخ، كلها مازالت بحاجة الى دراسات جادة تقدم رؤى واستراتيجيات ملائمة وحلول حقيقية لهذه المشكلات.

---

[1]- لمزيد من المعلومات انظر: عبد القادر عبد الله عرابي، المرجع السابق، ص. ص 195-208.

[2] -عبد العالي دبلة، **مدخل الى التحليل السوسيولوجي**، (الجزائر: دار الخلدونية، 2011)، ص.5.

كما ان التقدم الحقيقي مرتبط بالعقول القلقة المفكرة، حيث صار القلق المعرفي هو سمة العقل الانساني المرتبط بالمناهج الكيفية التي ادى غيابها عن المؤسسات التعليمية الى ازمة في الفكر العلمي العربي المعاصر ذلك ان المناهج الكيفية هي التي تدرس المعرفة وتحللها وتنقدها وهي التي تنبع من المجتمع ذاته فأزمة العلوم الاجتماعية العربية هي أزمة منهجية وفكرية وثقافية، ازمة العقل فالنظريات والمناهج هما عنصران اساسيان في الثقافة يساهمان في تجديدها او جمودها.

فالجمود الثقافي والفكري الذي يحاصر الواقع العربي يعود بالمقام الاول الى العجز عن تجديد مناهج الفكر والمعرفة وغياب التفاعل بين هذه المناهج والتغيرات المجتمعية المحلية والعالمية، فعلم الاجتماع في المجتمعات العربية، لا يدرس الواقع ومن ثم لا يمكن ان يستشرف المستقبل، فهو لا يولد مناهج على مستوى اللحظة التاريخية التي يمر بها المجتمع العربي ولا يستند الى المناهج الكيفية واغفال اهميتها في تجديد مناهج البحث والفكر والثقافة.

اما عن وضعية السوسيولوجيا في الجزائر كممارسة جزائرية لم تأتي الا في مرحلة متأخرة وحتى مؤسسو علم الاجتماع الفرنسيين تحاشوا الخوض في قضايا الجزائر او المغرب العربي او العالم الاسلامي،[1] ولم تنتقل السوسيولوجيا الى الجزائريين الا عدة سنوات بعد الاستقلال فلم تكن محل تدريس في المعاهد العليا التي تأسست سنة1879 ولا في الجامعة التي برزت الى الوجود سنة 1909، ويعود ابتعاد الجزائيين عن ممارسة السوسيولوجيا الى غياب الوظائف التي يمكن ان يمارسوها في المجتمع ونقص التقدير لمهنة السوسيولوجي كما ان السوسيولوجيا كعلم لم توظف في مشروع التنمية في المرحل الاولى بعد الاستقلال لكن وضع السوسيولوجيا في الجزائر اليوم يشير الى وجود مؤسساتي ومادي يعطي انطباعا مزيفا بان السوسيولوجيا موجودة وبخير ويتجلى ذلك في اقسام علم الاجتماع الكثيرة وعدد المؤطرين والطلبة والكم الهائل من الرسائل والاطروحات والمقالات التي لا تبرح مغادرة رفوف المكتبات وفي مقابل هذا الكم الهائل يلاحظ الضعف النوعي في المستوى من جهة وما يمكن ان يطلق عليه سلطة السوسيولوجيين في المجتمع من جهة اخرى، هذه الوضعية المزرية هي محل الانشغال الاول لعلماء الاجتماع العرب، ويتجلى ذلك في كثرة الملتقيات التي يتدارس فيها المختصين اسباب ما اصطلح على تسميته بالأزمة.

ان الازمة على مستوى الفكر لم تظهر منذ بداية تكوين هذا العلم التبريري، وانما كانت في نشأتها واقعية وانعكست اثارها على مستوى التصور الفكري –وكان هو موطن التبرير الاديولوجي– نظرا لان الواقع

[1] - عبد القادر لقجع، المرجع السابق، ص.75.

يفرز ازمات هي ضد مصالح من كان يحكم هذا الواقع، مما دعا الحاجة الى نشأة النظرية التبريرية للحصول على شرعية من يحكمون،[1] وربما لذلك كانت الوضعية المذهب الملائم لصالح استقرار الاوضاع كما هي دون تغيير، وهنا تشكلت اولى النظريات السوسيو–تبريرية للتخصص في معالجة شؤون الحياة الاجتماعية.

ان معالجة الازمة على مستوى الفكر – كما فعل هوركهايمر، رايت ميلز، جولدنر...الخ– كانت تعبيرا عن ازمة الواقع، لكنها عولجت وكأنها منفصلة عنه، او ان حل الازمة سوف تخلق واقعا جديدا او تضعه في اطار نموذجي، واستنادا الى راي الدكتور احمد مجدي حجازي فان معالجة ازمة علم الاجتماع لن تكون الا من خلال الاعتراف بان هذا العلم نشأ كسلاح اديولوجي وتطور كأسلوب من اساليب الهيمنة الغربية التي تتسم في الوقت الراهن بالمصالح الدولية، [2] لذلك فان البحث عن دور علم الاجتماع في المجتمعات العربية يكون من خلال معالجة اشكالية الواقع المتأزم خاصة مع كل هذه التغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية.

رابعا: دور علم الاجتماع في المجتمعات العربية:

واخيرا على علماء الاجتماع في العالم العربي ان يثبتوا وجودهم كأصحاب مهنة علمية مهمة وضرورية للمجتمع، وان يتسلحوا بالدقة والموضوعية والوعي واليقظة السوسيولوجية حتى يمكن تجاوز هذه الحالة التي يوجد عليها علم الاجتماع والتهميش الذي يميزه، فمهنة عالم الاجتماع يجب ان تكون واضحة وتحتل مكانتها الحقيقية، وعلم الاجتماع يجب ان ينال الاعتراف من قبل من بيدهم سلطة القرار وان تتضافر الجهود لتأسيس علم اجتماع الازمة النابع من واقع معاناة المجتمعات العربية في المرحلة الراهنة واذا كان ريمون ارون سنة 1934 يرى ان علم الاجتماع يفتقر الى علماء اجتماع بسبب انهم كانوا ضحايا للحرب العالمية الاولى فان المجتمعات العربية اليوم على العكس من ذلك فهي تفتقر الى علم الاجتماع فما هو قائم اليوم هو علم اجتماع لا مجتمع له ومجتمع ما زال ينتظر علم اجتماعه.

ويندرج في هذا الاطار اهمية علم الاجتماع الخلدوني وتحليله للمجتمع ونظريته في العمران البشري، كما يمثل ابن خلدون النموذج النوعي في البحث الاجتماعي والبناء النظري التاسيسي لعلم العمران البشري، والمطلوب من الباحثين العرب تطوير وبلورة هذه الافكار فمن ليس له تاريخ ليس له مستقبل، والتخلص من عقدة الانبهار بالفكر الوافد من الخارج والتقليد فالتخلص من الاوضاع المتازمة يكون من خلال ارساء قواعد

---

[1]- احمد مجدي حجازي: **علم اجتماع الازمة**، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998)، ص.249.

[2]- نفس المرجع، ص.250.

التفكير الاجتماعي المبنية على حرية العقل وتفويض السلطة الكاملة للعقل لممارسة صلاحياته في التفكير العقلاني حول الحياة الاجتماعية دون ان يفتح جبهات للصراع مع الدين الاسلامي، ان المقاربة السوسيولوجية تمكن من فهم الحياة الاجتماعية، وفهم المشاكل العويصة، وبالتالي يتمكن الفرد من التفاعل الاجتماعي مع التغيرات التي تملا حياته وتجعله يدرك السبل التي يجب اتباعها لان يكون في مواقف الفعل الايجابي.

اذن:

اولا: الحل لا يكمن في الابقاء على حصر البحث في ازمة علم الاجتماع في المجتمعات العربية وانما في الاعتراف بان هذا العلم وجد لحل الازمة اي البحث عن صياغة علم اجتماع الازمة في المجتمعات العربية.

ثانيا: الاعتماد على المناهج الكيفية جنبا الى جنب مع المناهج الكمية لما لها من مميزات في دراسة وفهم واقع الفاعلين الاجتماعيين كما هو صادر منهم.

ثالثا: اهمية العمل على توحيد الصفوف والآراء من اجل الحصول على الاستقلالية وفي ظلها قد يكون الخلق والابداع، هنا يصبح الخيال السوسيولوجي امرا واردا وواقعا نابعا من جذور هذا المجتمع، وهنا فقط ينشأ علم الاجتماع حقيقي غير مزيف.

رابعا: الاستفادة من تجارب الغرب، والابتعاد من فخ النظريات التبريرية التي تخدم مصالح فئة معينة. ومنه الابتعاد عن تسييس علم الاجتماع.

خامسا: الاستفادة من مبادئ الدين الاسلامي باعتباره منهج للحياة، والحذر من الوقوع في فخ الصراع الديني ، لبناء نموذج يفسر الحياة الاجتماعية كما هي موجودة في الواقع.

قائمة المراجع:

1- احمد مجدي حجازي: **علم اجتماع الازمة**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

2- ايان كريب: **النظرية الاجتماعية من بارسونز الى ها برماس** (تعريب محمد حسين غلوم)، الكويت،

3- عامر مصباح، علم الاجتماع الرواد والنظريات، الجزائر: دار الامة، 2010.

4- عبد القادر عبد الله عرابي، **المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية**، دمشق: دار الفكر، 2007.

دانوال زغينة - مداخلة في ملتقى

5- عبد القادر لقجع: **علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر**، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2004.

6- عبد العالي دبلة: **مدخل الى التحليل السوسيولوجي**، الجزائر: دار الخلدونية، 2011.

د/ نوال رغينة - مداخلة في ملتقى